التّأدُّبُ اللغويُّ في سورة الفاتحة:

دراسةٌ تداوليّة

إعـداد

السادة

د/أحمد هلال محمد بني عيسى	قسم العلوم الأساسية، كلية عجلون الجامعية جامعة البلقاء التطبيقية، الأردن.
د/بسمة عودة سلمان الرواشدة	قسم العلوم الأساسية، كلية الأميرة رحمة الجامعية جامعة البلقاء التطبيقية، الأردن
د/إسماعيل محمود منيزل القيّام	قسم العلوم الأساسية، كلية عجلون الجامعية جامعة البلقاء التطبيقية، الأردن
د/نبيل (محمد هشام) عبد الشكور حريز	قسم العلوم الأساسية، كلية عجلون الجامعية جامعة البلقاء التطبيقية، الأردن

١٤٤٦هـ- ٢٠٢٥م

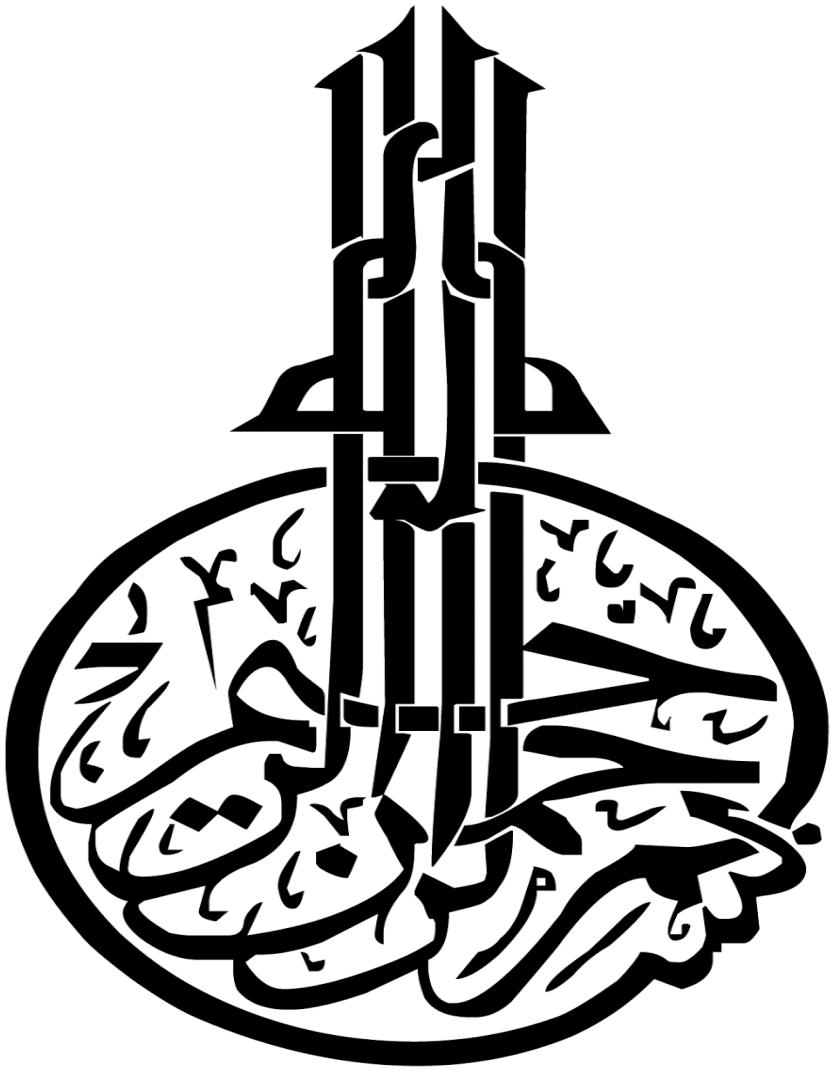

التّأدُّبُ اللغويُّ في سورة الفاتحة: دراسةٌ تداوليّة

أحمد هلال محمد بني عيسى
كلية عجلون الجامعية- قسم العلوم الأساسية/ جامعة البلقاء التطبيقية، الأردن.

بسمة عودة سلمان الرواشدة
كلية الأميرة رحمة الجامعية- قسم العلوم الأساسية/ جامعة البلقاء التطبيقية، الأردن.

إسماعيل محمود منيزل القيّام
كلية عجلون الجامعية- قسم العلوم الأساسية/ جامعة البلقاء التطبيقية، الأردن.

نبيل (محمد هشام) عبد الشكور حريز
كلية عجلون الجامعية- قسم العلوم الأساسية/ جامعة البلقاء التطبيقية، الأردن.

البريد الإلكتروني للباحث الرئيسي:
Ahmed-hillal@bau.edu.jo

الملخص:

يُسَلّط هذا البحثُ الضوء علىٰ ظاهرة التأدُّب اللغويِّ في سورة الفاتحة المباركة، بدراسةٍ نصيّةٍ لمظاهر تلك الظاهرة فيها، وفي صيغةٍ صرفيةٍ حصرًا، هي صيغة اسم الفاعل. وقد وُضِعَت أسسُ نظرية التأدب اللغوي بالنظر إلىٰ تداولية اللغة واستعمالها في السياقات المختلفة، وانتقالِها من الدور التبليغيِّ إلىٰ الوظيفة التعاملية التفاعلية التي تتطلّب مزيدًا من الحفاظ علىٰ الودّ بين المتخاطبين، وحفظ ماء الوجه أثناء العملية الكلاميّة. المنهجيّة: يعتمد البحثُ المنهج الوصفيّ التحليليّ لرصد مظاهر التأدّب اللغويّ وتطبيقاته في سورة الفاتحة المباركة. النتائج: كَشَفَ البحثُ أنّ للتأدُّب

اللغويّ حضورًا بالغًا في النصّ القرآنيّ من خلال التطبيق علىٰ سورة الفاتحة، وذلك وفقًا لما تطرحه أدبيّات براجماتيّة اللغة، وما حدّدته إستراتيجيّاتُ التأدُّب اللغويّ عند مُنظّريه واللغويّين الذين انشغلوا به وقدّموا أطروحات في أسسه ومنطلقاته. الخلاصة: بتقصّي ظاهرة التأدّب اللغويّ ومقاييسها في سورة الفاتحة من خلال الظواهر اللغوية الواردة فيها، تبيّن للباحثِينَ أنّ للتأدّب صدًىٰ واضحًا في آيات السورة، وذلك في عدد من المواضع أبرزها: الحذف، والتقديم والتأخير، واستخدام الإنشاء الطلبيّ، والجملة الاسمية، والمشتقات.

الكلمات المفتاحيّة: التأدّب اللغويّ- التداوليّة- الفاتحة- اللغة.

Linguistic Politeness in Surat Al-Fatiha: A Pragmatic Study

Ahmed Hilal Mohammed Bani Issa[1*], Basma Odeh Salman Al-Rawashdeh[2], Ismail Mahmoud Munizil Al-Qayam[3], Nabil (Mohammed Hisham) Abdul Shakoor Hariz[4].

[1] Department of Basic Sciences, Ajloun University College, Al-Balqa Applied University, Jordan.

[2] Department of Basic Sciences, Princess Rahma University College, Al-Balqa Applied University, Jordan.

[3] Department of Basic Sciences, Ajloun University College, Al-Balqa Applied University, Jordan.

[4] Department of Basic Sciences, Ajloun University College, Al-Balqa Applied University, Jordan.

E-mail For the lead author: Ahmed-hillal@bau.edu.jo

Abstract:

This research sheds light on the phenomenon of linguistic politeness in the blessed Surat Al-Fatiha through a textual study that examines its manifestations, focusing exclusively on the morphological form of the active participle. The foundations of linguistic politeness theory are established by examining the pragmatics of language and its use in different contexts, highlighting its shift from a purely communicative role to an interactive, transactional function that emphasizes maintaining goodwill between interlocutors and preserving face during the communication process. Methodology: The study adopts a descriptive-analytical approach to observe and analyze the manifestations and applications of linguistic politeness in Surat Al-Fatiha. Results: The study reveals a significant presence of linguistic politeness in the Qur'anic text through its application in Surat Al-Fatiha. This is in line with the principles of linguistic pragmatics and the strategies of politeness outlined by its theorists and linguists who have explored its foundations and principles. Conclusion By

investigating the phenomenon of linguistic politeness and its criteria in Surat Al-Fatiha through its linguistic features, researchers have found a clear resonance of politeness in the verses of the surah. This is evident in several aspects, most notably omission, precedence and postponement, the use of imperative constructions, nominal sentences, and derivatives.

Keywords: Linguistic Politeness - Pragmatics - Al-Fatiha - Language.

مقدّمة

التأدّبُ اللغويُّ نظريّةٌ لغويّةٌ حديثة، وُضِعت أسسُها في سبعينيات القرن العشرين، بالنظر إلىٰ تداولية اللغة واستعمالها في السياقات المختلفة، وانتقالِها من الدور التبليغي إلىٰ الوظيفة التعاملية التفاعلية، التي تتطلّب مزيدًا من الحفاظ علىٰ الودّ بين المتخاطبين، وحفظ ماء الوجه أثناء العملية الكلاميّة.

والحفاظُ علىٰ قدر من الودِّ والمجاملة في العملية الكلاميّة، يدعو المتكلمين إلىٰ إيثار لفظٍ علىٰ آخر، وتركيبٍ علىٰ غيره، وأسلوبٍ عن سواه، وظاهرةٍ لغويّةٍ علىٰ أخرىٰ. وهنا رأىٰ الباحثون بناءً علىٰ ما تحتمله الظواهر اللغوية من أوجه الدلالات والتفسيرات وفقًا لتداوليّة اللغة، تطبيقَ معطيات نظريّة التأدّب اللغويّ علىٰ نصٍّ من القرآن الكريم، هو سورة الفاتحة، وتقصّيَ ظاهرة التأدّب ومقاييسها فيها من خلال الظواهر اللغوية الواردة فيها. وتبيّن للباحثين أنّ للتأدّب صدًىٰ كبيرًا في آيات السورة، في ظواهر الحذف، والتقديم والتأخير، والإنشاء الطلبيّ، والجملة الاسمية، والمشتقات.

يتناول هذا البحثُ ظاهرةً لسانيّةً تداوليّة، هي ظاهرة التأدب اللغويّ، وفي صيغةٍ صرفيةٍ حصرًا، هي صيغة اسم الفاعل، وفي نموذجٍ من القرآن الكريم هو سورة الفاتحة؛ إذ تبيّن لنا أنّها متنٌ مناسبٌ للتّطبيق عليه في دراسة مظاهر التأدب اللغويّ.

وظاهرةُ التأدّب المقصودة بالدراسة هنا، هي التي جاء بها الإنجليزيُّ (جيفري ليتش)، وتقوم علىٰ مقاييس عدّة، جعلت منها ظاهرةً لسانية قائمة بذاتها، تندرج تحت مظلّةِ التداوليّة، التي تولي البعدَ الاستعماليَّ للّغة كبيرَ عناية، يقول طه عبد الرحمن في الحديث عن ماهيّة الكلام في إطار التداوليّة: "إنّه علاقة بين المتخاطبين تقوم علىٰ قواعد في اتجاهين: الأوّل يتضمّن قواعد محدّدة، تضبط

العمليّة التواصليّة، والثاني: يتضمّن قواعد تضبط وجوه استقامتها الأخلاقيّة التعامليّة" (عبد الرحمن، ١٩٨٨، ص٢٣٧).

وهذا يعني أنه يمكن النظر إلىٰ الصيغة التركيبية أو الصرفيّة تداوليًّا بما تحمله من إشعاعاتٍ دلالية ومقاصد ممكنة، مع الاستعانة بمعطيات السياق، والخلفيات الثقافية والدينية والاجتماعية. وفي النصّ القرآنيّ خاصّةً يُعوَّل علىٰ ما فيه من جدّة لا تخلق، وعجائب لا تنقضي.

مفهوم التأدب عند ليتش:

بالنظر إلىٰ مفهوم التأدب في الدرس اللساني الغربي بعامة، وعند ليتش بخاصة؛ يتبيّن قيامه علىٰ مراعاة ماء الوجه، وحفظ الصلة الاجتماعية بين المتكلّمين، وهدم النزاع قبل وقوعه. لذا عُرّف التأدب بأنّه "مجموعة من الطرائق المتعارف عليها داخل الجماعة اللغوية، يتمثّل دورها في الحفاظ علىٰ قدرٍ عالٍ من الانسجام أثناء التفاعل بين المتكلمين" (عبيد، ٢٠١٤، ص٢).

وحين يُنقل التأدّب إلىٰ الدرس اللغوي العربيّ؛ يجد نفسه في أحضان البلاغة العربية، ويوافق غايتها، فالبلاغة -وعلم المعاني منها بخاصّة- تقوم في جملتها علىٰ مراعاة المقام، ومراعاة أحوال المخاطب، فيراد منها وبها الإفهام والتأثير، يقول أبو هلال العسكري: "سمّيت البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنىٰ إلىٰ قلب السامع، فيفهمه، وهي كلّ ما تبلّغ به المعنىٰ قلب السامع، فتُمكّنه في نفسه كتمكُّنه في نفسك، مع صورةٍ مقبولةٍ ومعرض حسن" (العسكري، ١٩٥٢، ص٦).

وأشار القزويني إلىٰ ما يُعرف بمقتضىٰ الحال، إذ يقول: "بلاغة الكلام هي مطابقته لمقتضىٰ الحال مع فصاحته، والحال هو الداعي للمتكلّم إلىٰ إيراد الكلام علىٰ وجهٍ مخصوص، ومقتضىٰ الحال مختلف، ومقامات الكلام متفاوتة؛ فمقام

التنكير يباين مقام التعريف، ومقام التقديم يباين مقام التأخير" (القزويني، ١٩٥٣، ج١/ ٤٧-٤٩).

ولمّا كان شأن الكلام في البلاغة علىٰ ما ذُكر، فإنّ في كلام الله من المناسبة والمراعاة للمقام ما لا يُقارن به كلام آخر، ولا نصّ مكتوب أو مسموع. وإنّ التأدّب المراد في خطاباته هو الاختيار الأنسب في المفردة وفي التركيب وفي سائر الظواهر اللغويّة. فما لا جدال فيه أنّ كلام الله سبحانه له السبق المعلّىٰ علىٰ سائر الكلام، ولا يُختبر في نظرية لغوية، إنّما تُختبر النظرية نفسُها لبيان سلامتها من عدمها.

ومن هنا، اتّجه هذا البحثُ إلىٰ النظر في سورة الفاتحة، وفيما تضمّنته من صيغٍ وتراكيب مختلفة، وظواهر لغوية متباينة، للكشف عن التأدب اللغوي فيها، وفق المقاييس التي جاء بها (جيفري ليتش).

مقاييس التأدب اللغويّ:

مِن المهمِّ الالتفاتُ إلىٰ أنّ التأدب في نشأته الحديثة أخذ صبغةً منهجية، وبُني علىٰ مقاييس عدّة باعتبار العملية التخاطبية قائمة علىٰ طرفين؛ هما: المتكلّم، والمخاطب. وقد بيّن جيفري ليتش هذه المقاييس، وهي: *(LEECH, 2014, p.91)*

- **الأوّل:** مقياس الكرم، وفيه يُعطىٰ الآخر قيمةً عليا في الرغبات.
- **الثاني:** مقياس اللباقة، وفيه يُقلّل من الخسائر التي يمكن إلحاقها بالسامع المخاطب، ومنح المتكلم نفسه القيمة العليا في الرغبات.
- **الثالث:** مقياس الاستحسان، وفيه تُعطىٰ قيمة عليا لمؤهلات الآخر.
- **الرابع:** مقياس التواضع، وفيه يعطي المتكلمُ نفسَه قيمةً منخفضة أمام الآخر.

- **الخامس:** مقياس الإجبار، إجبار المتكلم للآخر، إن كان في الاعتراف أو في المدح والثناء.

- **السادس:** مقياس إجبار الآخر للمتكلم.

- **السابع:** مقياس الموافقة في الرأي؛ الاتفاق، وفيه يقع الإكثار من التعابير التي تظهر الاتفاق بين المتخاطبين.

- **الثامن:** مقياس التحفظ في الرأي.

- **التاسع:** مقياس التعاطف، وفيه يعطىٰ الآخر قيمة عليا في المشاعر.

- **العاشر:** مقياس التحفظ في المشاعر.

ومن المهم الإشارة إلىٰ أنّ بالإمكان أن يقع في الخطاب اللغوي مقاييس عدّة، تحتملها تداولية اللغة واستعمالها، مع ما يتوافر من مشيرات في المقام وظروف في السياق.

الدراسات السّابقة:

تُعَدُّ ظاهرة التأدب واحدة مما طرحته التداولية في البعد الاستعمالي للغة، وبصورةٍ أخصّ البعد الاستعمالي التفاعلي، الذي يرمي إلىٰ تحقيق التوافق والانسجام في العملية التخاطبية برمّتها، وقد نالت هذه الظاهرة حظّها من البحث والدراسة في عديد دراسات، ومن أبرزها:

- **دراسة فايزة اللحياني** بعنوان: "التأدب العربي في الخطاب"، تناولت الإستراتيجيات التي تعطيه المقبوليّة. لكنّها لم تُطبّق علىٰ مدوّنةٍ ما.

- **دراسة عبد الحليم بن عيسى بعنوان:** "أدبيات التأدّب في محاورات الأنبياء عليهم السلام: دراسة في بلاغة الخطاب"، وقد سلك الباحث في مناقشة

التأدب مسلكًا اجتماعيًّا، دونما الْتفاتٍ إلىٰ الإستراتيجيات التي تعزّز مكانة التأدب في الخطاب.

وثمّة دراستان اثنتان في التأدب، بالإنجليزيّة:

"ظاهرة التأدب اللغوي في القرآن الكريم" لمنال محمد، وقد أقامتْها علىٰ المنوال الذي جاء به كلٌّ من براون وليفنسون. و**"دراسة تداوليّة لظاهرة تأدب النص في اللغة العربيّة"** لزهراء ناصر الموسوي، وهي بعيدة عن منوال "جيفري ليش".

أمّا هذا البحثُ فيأخذ مسلكًا لغويًّا في الإقرار بظاهرة التأدب. والمراد بالمسلك اللغوي الحكمُ بوجود التأدب بناءً علىٰ ظاهرة لغوية، أي استنطاق التأدب مثلًا في الجملة الاسمية، أو صيغة فعل الأمر، أو تقديم ما حقّه التأخير، أو الحذف، مع الاعتماد حصرًا علىٰ مدوّنة تطبيقية، وهي سورة الفاتحة.

وانطلاقًا مما يؤمن به البحثُ أنّ الظواهر اللغوية المختلفة مكثفة الدلالة مليئة بالمقاصد، أخذَ علىٰ عاتقه النظر فيما تيسّر في سورة الفاتحة من ظواهر صرفية أو تركيبية أو بلاغيّة، جاءت في موضعها أو في سياقها حاملةً للتأدب دالّةً عليه. ومسار العمل يقوم علىٰ اعتبار الظاهرة هي الأنسب والأكثر ملاءمة في موضعها، فحين اختُبر التأدب ومقاييسه فيها -أي في الظاهرة- وُجدتْ صلاحيته للتطبيق، فقيل: في الآية تأدُّبٌ لغويّ. وللإيضاح نسوق المثال الآتي في قولِ رجلٍ لآخر: الشكر لك.

ففي المثال دلالةٌ علىٰ الشّكر، جاء بصيغة الجملة الاسمية. وبفلسفةِ هذا البحث رئي أنّ استخدام الجملة الاسمية في إسداء الشكر فيه دلالةٌ علىٰ التأدب وأحد مقاييسه، ذلك أنّه يُنظر إلىٰ الجملة الاسمية في البلاغة العربية علىٰ أنها دالة علىٰ ثبوت

الأمر وتحققه، وكأنها أيضًا تحمل المقصد في مختلف الأزمنة الماضي والحاضر والمستقبل.

وعليه، لمّا كان المتكلّم يريد أن يعبّر عن شكره بأقصىٰ درجة للآخر، ويرفع من مؤهلاته أو مشاعره في العبارة اللغوية، آثر استخدام الجملة الاسمية بديلًا للجملة الفعلية، فقيل والحال هذه: إنَّ في الخطاب تأدّبًا، ظهر في الصيغة التركيبية (الجملة الاسمية). وهذا الجديد الذي افترق به هذا البحثُ عما سبقه. وتاليًا البدء بالجانب التطبيقي في الكشف عن التأدب ومقاييسه في ظواهر لغوية مختلفة في سورة الفاتحة:

أوّلًا- الحذف في سورة الفاتحة: قوله تعالى ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ [سورة الفاتحة: ١].

الحذف ظاهرة شائعة في العربية، تقع في الحرف والكلمة والجملة، وهي ظاهرة يتجاذبها النحو كما البلاغة، ولكلٍّ منهما نظرته فيها، يقول ابن هشام: "الحذف الذي يلزم النحويَّ النظر فيه، هو ما اقتضته الصناعة، وذلك بأن يجد خبرًا بدون مبتدأ، أو بالعكس، أو شرطًا بدون جزاء، أو بالعكس، أو معطوفًا بدون معطوف عليه، أو بالعكس، أو معمولًا بدون عامل، نحو: (ليقولُنّ الله)، ونحو: (قالوا خيرًا)، ونحو: خير عافاك الله، وأما قولهم في النحو: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [سورة النحل: ٨١]. أنّ التقدير: والبرد، ونحو: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [سورة الشعراء: ٢٢]. أنّ التقدير: ولم تعبِّدني؛ ففضولٌ في فنّ النحو، وكذلك قولهم يُحذف الفاعل لعظمته، وحقارة المفعول، أو بالعكس، أو للجهل به أو للخوف عليه أو منه، ونحو ذلك؛ فإنه تطفُّل منهم علىٰ صناعة البيان" (**ابن هشام**، ١٩٦٤، ج٢/ ٣٠٦).

يوضح ابن هشام ما يُعنىٰ به النحويّ في الحذف، وما يُعنىٰ به البلاغيّ، مما ذكره من الأغراض التي يخرج إليها الحذف. ووصَف ابن الأثير الإيجاز بالحذف بقوله: "عجيبُ الأمر، شبيهٌ بالسحر، وذاك أنّك ترىٰ فيه تركَ الذِّكرِ أفصحَ من الذِّكر، والصمتَ عن الإفادة أزيدَ في الإفادة، وتجدك أنطقَ ما تكون إذا لم تنطق" (**ابن الأثير، ١٩٨٢، ج٢/ ٢٦٨**).

ومتىٰ وقع الحذف في التركيب فإنّه يحيل بالضرورة إلىٰ عناصر سياقية تقوّي الانسجام والاتساق في النص، وتجبر القارئ المتبصّر علىٰ تتبع تلك العناصر، للكشف عن مقاصد إضافية، يقول الخطابيّ: "فالمتلقي حين يحدّد بوعيٍ أو بدون وعي وضعيّةً لعيّنةٍ لغويّة؛ يستدعي بنيتين: خارجية وداخليّة؛ تتمثّل الداخليّة في اعتماد الوسائل اللغوية التي تربط أواصر مقطع ما، وتكمن الخارجيّة في مراعاة المقام، أي: أنّ المتلقي يضع في اعتباره كلّ ما يعرفه عن المحيط" (**خطابي، ١٩٩١، ١٤**).

ولا مناص من الالتفات إلىٰ فائدة الحذف في الظاهرة اللغوية بعامة، إذ أورد ابن القيّم في الفوائد أنّ "فائدة الحذف زيادة لذّة بسبب استنباط الذهن للمحذوف، وكلما كان الشعور بالمحذوف أعسر كان الالتذاذ به أشدّ وأكثر، وكان ذلك أحسن" (**ابن قيم الجوزية، ١٩٨٨، ٧١**).

وبالعودة إلىٰ قوله تعالىٰ (بسم الله)، فقد أورد القرطبيّ أنّ "الآية تضمنت جميع الشرع، لأنها تدلّ علىٰ الذات والصفات" (**القرطبي، ١٩٦٤، ج١/ ٨٨**)، وأورد الزمخشري أنّ في الآية حذفًا: "وإن قلت: بمَ تعلّقت الباء في بسم الله، قلت: تعلقت بمحذوف، تقديره: بسم الله أقرأ وأتلو، وإن قلت لمَ قدّرت المحذوف متأخرًا؟ قلت: لأنّ الأهمّ من الفعل والمتعلّق به هو المتعلّق به، لأنهم كانوا يبدأون بأسماء آلهتهم، فيقولون: باسم اللات وباسم العزّىٰ، فوجب أن يقصد الموحّد معنىٰ اختصاص اسم

الله عزَّ وجلّ بالابتداء، وذلك بتقديمه وتأخير الفعل" (الزمخشري، ٢٠٠٩، ج١/٩٩)، وقال أبو السعود: "إنّ تقديم المعمول للاعتناء به، والقصد إلىٰ التخصيص، والعبرة بالغاية والامتثال، ومدارها البدء بالتسمية، لا بتقدير الفعل" (أبو السّعود، ١٩٩٩، ج١/ ٧).

كيف يمكن النظر إلى الحذف في الآية في إطار التأدّب؟

معروفٌ أنّ القرآن كلام الله سبحانه، "لكن منه ما هو كلام الله عن نفسه، ومنه ما هو كلام الله عمّا كان يجب أن ينطق به الخلق علىٰ اختلاف ألسنتهم وأحوالهم وترقّي درجاتهم ورُتب تفاضُلهم، ممّا لا يمكنهم البلوغ إلىٰ كنهه لقصورهم وعجزهم؛ فتولّىٰ الله الوكيلُ علىٰ كلِّ شيء الإنباءَ عنهم" (البقاعي، ١٩٨٤، ج١/ ٣٥).

وهذه الآية واحدة من الآيات التي تمثّل ما كان يجب أن ينطق به الخَلْق في افتتاحهم القراءة والتِّلاوة، حيث البدْء بها علىٰ الصّورة التي جاءت؛ الباءُ ثم اسم الله عزّ وجلّ، متبوعًا بفعلٍ مقدّرٍ محذوف. ولمّا كان الأمر علىٰ هذا النحو كان التأدّب ماثلًا في اعتراف المتكلّم، وهو المخلوق العابد لله عزّ وجلّ اعترافًا صريحًا بالمؤهلات؛ ذلك أنّه ذكرَ اسم الله بدءًا مع حذف الفعل، والحذف هنا أبلغ في تحقيق المراد، يقول العلويّ في الحذف المشابه لما في هذه الآية: "الحذف في مثل هذا أبلغ من الذّكر، لأنّ النفس تذهب فيه كلّ مذهب، ولو ظهر المحذوف لنزل قدر الكلام عن علوّ بلاغته" (العلوي، ١٩١٤، ج٣/ ١٧٥).

فترْك الفعل وحذفه إشعارٌ من المتكلِّم أنَّ البسملة وإنْ كانت خاصّة، فهي عامّة في كل فعل يُبدأ به. ومِن ثَمَّ ففي آية البسملة من الفاتحة تأدُّبٌ لغويّ، تحقّق في صيغة الحذف، وفق مقاييس الكرم واللباقة والاستحسان في الاعتراف للخالق سبحانه بـ"المؤهلات" التي هو جدير بها.

ثانيًا- التأدّب اللغوي في الجملة الاسمية ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الفاتحة: ٢].

تعدّ الجملة الاسمية قسيمًا للجملة الفعليّة في العربيّة، وتتكوّن من المسند والمسند إليه، ويعد المبتدأ فيها هو المسند إليه ومثبتٌ له المعنىٰ، والخبر هو المسند ومثبتٌ به المعنىٰ (**الجرجاني، ١٩٩٢، ١٨٩**). وتندرج الجملة تحت مظلّة علم المعاني في الدرس البلاغيّ، الذي يُعنىٰ بـ"تتبُّع خواصّ تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتّصل بها من الاستحسان وغيره" (**السكّاكي، ١٩٨٣، ١٦١**)، وقد أشار الزركشيّ في باب (فائدة في الفرق بين الخطاب بالاسم والفعل) إلىٰ أنّ "الفعل يدل علىٰ التجدُّد والحدوث، والاسم يدلّ علىٰ الاستقرار والثبوت، ولا يحسن وضع أحدهما موضع الآخر" (**الزركشي، ٢٠٠٦، ج٤/ ٥٩**).

فالمحصّلة أنّ البلاغيّين لا يقفون عند الناحية اللفظيّة حين يقسّمون الجملة، فلا يكتفون بالقول إنّ هذه اسميّة وهذه فعليّة، "وإنّما يذكرون هذا توطئةً لما بعده ممّا يقصده البلاغيون، فلكلٍّ من الجملة الاسمية والفعليّة أغراضها البيانيّة، ومميزاتها البلاغيّة، فإذا أرادوا التعبير عن معنىٰ الثبوت فإنهم يأتون بالجملة الاسميّة، كقولنا: الله خالق كلّ شيء، وحاتم جواد. وإذا أرادوا أن يعبّروا عن معنىٰ التجدّد والحدوث، فإنّهم يأتون بالجملة الفعليّة" (**عباس، ٢٠٠٧، ١٩–٩٢**)، فالاسميّة تفيد الثبوت، وقد تفيد الدوام بالقرائن.

وهكذا وقع الخطاب في الآية الكريمة بالجملة الاسمية: (الحمد لله)، "والحمد معناه الثناء الكامل بوجود الألف واللام الدالة علىٰ استغراق الجنس من المحامد، وفي الآية دلالة علىٰ التوحيد أيضًا، الذي هو لا إله إلا الله" (**القرطبي، ١٩٦٤، ج١/ ١٣٠**)، "والحمد لله دلالة علىٰ أنّ الله وحده المستحق لجميع المحامد، لا لشيء غير

ذاته، الحائز لجميع الكمالات، ثمّ إنّ الحمد مدح كامل يحيط بجميع الأفعال والأوصاف" (**البقاعي**، ١٩٨٤، ج١/ ٢٨).

وألمح البيضاوي إلىٰ نكتةٍ بلاغية لطيفة حين عدّ "(الحمد) رفعًا بالابتداء، وخبره (لله)، والأصل النصب، وإنّما عُدل إلىٰ الرفع ليدلّ علىٰ عموم الحمد وثباته، دون تجدّد حدوثه" (**البيضاوي**، ٢٠٠٠، ج١/ ٢٨).

وعطفًا علىٰ ما سبق، ينظر إلىٰ الجملة الاسميّة حاملة للتأدّب اللغوي في ضوء تداولية الاستخدام، فضلًا عن السياق القرآني الواردة فيه، "ففي سورة الفاتحة من كليّات العقيدة الإسلاميّة، وكليّات التّصور الإسلامي، وكليّات المشاعر والتوجّهات، ما يشير إلىٰ طرف من حكمة اختيارها للتكرار في كلّ ركعة، وحكمة بطلان كلّ صلاة لا تُذكر فيها" (**قطب**، ١٩٧٢، ج١/ ٢٨). ثمّ إنّ أكمل أحوال السائل أن يمدح مسؤوله، كما في (الحمد لله ربّ العالمين)، لأنّه أنجح للحاجة، وأنجع للإجابة، ولهذا أرشد الله تعالىٰ إليه لأنّه الأكمل.

وباستجماع ما ذُكر في الجملة الاسمية: (الحمد لله)، يقال: وقع التأدّب في الجملة الاسميّة، باعتبارها صادرة من السائل اعترافًا بمؤهلات المسؤول وإقرارًا بها، وهذا معادل لصيغة: إعطاء المتكلّم الآخر القيمة المرتفعة في المؤهلات والاعتراف له بها في مقياس الكرم واللباقة والاستحسان، فضلًا عن مقياس الإجبار، إجبار الآخر في صفاته وأفعاله وقدرته للمتكلّم علىٰ المدح والثناء. وكلّ هذا تحقّق في استخدام الجملة الاسمية بديلًا للجملة الفعليّة.

ثالثًا- التأدّب اللغويّ في مشتقات سورة الفاتحة:

١. اسم الفاعل (مالك) في قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [سورة الفاتحة: ٤].

ما زالت الآيات الكريمة تُجري الأوصاف علىٰ الله تعالىٰ، من كونه موجدًا للعالمين ربًّا لهم، منعمًا عليهم بالنّعم كلّها ظاهرة وباطنة، عاجلة وآجلة، مالكًا لأمور دينهم ودنياهم، مالكًا لأمورهم يوم الثواب والعقاب، للدّلالة علىٰ أنّه المستحق للحمد، ولا أحد أحقّ به منه، و"إنّ ترتّب الحكم علىٰ الوصف يشعر بعلّيّته له" (**البيضاوي، ٢٠٠٠، ج١/ ٢٨**). "والمالك هو المتصرّف بالفعل في الأشياء المملوكة له، والمتصرّف في جميع خلقه بالقول والفعل يوم الجزاء والحساب" (**ابن كثير، ٢٠٠٠، ج١/ ١٣٣**). وذكر أبو حيان في مناسبة الآية لِمَا قبلها أنّه لمّا وصف نفسه بالرحمة، وكان هذا قد يؤدي بالعبد إلىٰ غلبة الرجاء عليه، "نبّه بصفة الملك أو المالك ليكون العبد من عمله علىٰ وَجَل، وأنّ لعمله يومًا تظهر له فيه ثمرته من خير وشرّ" (**أبو حيان الأندلسي، ١٩٩٣، ج١/ ٤٠**).

ولأنّ الخطاب القرآني عبّر عن تصرّف الخالق في الخلق والأشياء بصيغة اسم الفاعل، فقد حقّق الغاية والقصد كما تبيّن، وبصيغةٍ أخرىٰ: استطاع اسم الفاعل أن يحمل المقصد بما يدلّ عليه من الثبوت والتحقق المستفاد من الاسمية بعامّة، والشمول في الزمن بخاصّة، فالله عزّ وجلّ مالكٌ ليوم الدين في الماضي وفي الحاضر وفي المستقبل، وبذلك وقعت الإحاطةُ إحاطةُ الملك بيوم الدين بناءً علىٰ ما قدّمتْه الصيغةُ الصرفيّة اسمُ الفاعل.

ووفقًا لما سبق، جاء التأدب اللغوي متحققًا ظاهرًا بمقياس اللباقة، الذي يعطي فيه المتكلّم للآخر القيمة العليا في المؤهلات، ويعترف بها ويقرّرها لغويًّا وعقائديًّا.

وجديرٌ بالتنبيه أنّ القول بالتأدب الذي يعطي فيه المتكلم للآخر قيمة مرتفعة في مؤهلاته، لا يعني فقدان الآخر لها قبل ذلك، فالمراد أنّ اللغة ثبَتَ فيها هذا المقصد حال إجراء التحليل كما بُيِّن في السطور السابقة.

٢. الصفتان المشبّهتان: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [سورة الفاتحة:٣].

الرحمن والرحيم صفتان مشتقتان من الفعل (رحم)، ويراد بهذا الوصف في جنب الله إثبات الغرض الأسمىٰ من حقيقة الرحمة، وهو صدور آثارها من الرفق واللطف والإحسان والإعانة، ووصف الله بالرحمة من المنقولات الشرعية، قال تعالىٰ: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [سورة الأعراف:١٥٦].فالرحمة منقولة في لسان الشرع إلىٰ إرادة الله إيصال الإحسان إلىٰ مخلوقاته في الحياة الدنيا.

جاء وصف الرحمن الرحيم لله عزّ وجلّ بعد وصفه بـ(ربّ العالمين) "لمناسبةٍ ظاهرةٍ للبليغ، فبعد أن وُصف بما هو استحقاقه الحمدَ من كونه ربَّ العالمين، يدير شؤونهم؛ ناسب بعد ذلك وصفه بالرحمة وصفًا ذاتيًّا تصدر عنه آثاره، إذ لمّا كان الله ربًّا للعالمين، وكان المربوبون ضعفاء كان احتياجهم للرحمة واضحًا، وكان ترقّبهم إياها من الموصوف بها بالذات ناجحًا" (ابن عاشور، ١٩٨٤، ج١/ ١٧٣). وقال أبو حيّان: "إنّ في الآية مناسبة ظاهرة لما قبلها، إذ لمّا وصف الله نفسه بالربوبية، التي تعني أنه السيّد المالك المعبود الذي له مطلق التّصرّف في عباده، والتي قد يُفهم منها معنىٰ الجبروت والقهر؛ جاء وصفه بالرحمة بعدها لينبسط أمل العبد في العفو إنْ زلّ، ويقوىٰ رجاؤه إن هفا" (أبو حيان الأندلسي، ٢٠٠٠، ج١/ ٣٥).

وليس أدلّ مما ذكر علىٰ قيمة الصفتين في حمْل التأدب والكشف عنه، ذلك أنّ مدح الله والثناء عليه جاء مدحًا للذات والصفات في سورة الفاتحة، ولم يأتِ مدحًا

لفعلٍ يقع ثم يزول، أو ثناء علىٰ صفة عارضة طارئة، بل جاء في صفتين ثابتتين بالمعنىٰ الصرفي وكذلك بالمعنىٰ الحقيقي لله عزّ وجلّ في ذاته وصفاته؛ فحمَل الخطابُ بهما أقصىٰ الغايات في المدح والثناء، أو ما يعادل في مقاييس التأدب؛ إذ منح الخطاب من المتكلّم لله عزّ وجلّ أرفع قيمة وأعلاها وأجلّها في المؤهلات والإمكانات، فرحمة الله تسع كلّ شيء، وتسبق غضبه.

وبذا، يقال: أجاد الخطاب في المدح والثَّناء، وفيه تحقّق مقياس التّأدب وفق الاستحسان والكرم، إذْ من خلالهما أعطىٰ المتكلّم للآخر قيمة عليا في المؤهلات والإمكانات.

٣. التأدّب في اسم المفعول (المغضوب عليهم) في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة الفاتحة: ٧].

ذُكرت الآية في سياق الحديث عن الذين أنعم الله عليهم، "فهؤلاء ليسوا كاليهود ومَن سلك طريقهم في ترك العمل بالحق بعد معرفته، وأخصّ أوصاف اليهود الغضب، وليسوا كالنصارىٰ ومن سلك طريقهم ممن جهلوا الحقّ، فعبدوا الله بغير علم، وأخصّ أوصاف النصارىٰ الضلال" (الماوردي، ٢٠١٩، ج١/ ٦١). فالآية تبين طرفي الانحراف عن الصراط المستقيم، "وأنّ الانحراف إلىٰ الطرف الأوّل المغضوب عليهم انحرافٌ إلىٰ الغضب الذي سببه فساد العمل والقصد، والانحراف إلىٰ الطرف الثاني انحرافٌ إلىٰ الضلال الذي هو فساد العلم والاعتقاد" (**ابن قيم الجوزية**، ١٩٨٨، ١٩).

ويبدأ الكشف عادةً عن ظاهرة لغويّة كالتأدب في صيغة أو في تركيب، بما تقدّمه معطيات تلك الظاهرة، إضافةً إلىٰ معطيات السياق، فضلًا عن مقارنة صيغة بأخرىٰ مقابلة لها أو مضادّة؛ لأنّ التداوليّة عمومًا -وفي أحضانها نشأ التأدّب- جاءت موازاةً

للتّيّاريْنِ البنيويِّ والتوليديّ، وقد عُنيت بدراسة اللغة في حال الاستعمال، والاستعمالُ هو الاتكاءُ علىٰ السياق وأحوال المتخاطبين، مع اعتبار التلاؤم بين تعابير الرموز وسياقات المرجع والمقام (**بلانشيه**، ٢٠٠٧، ١٨)، فيقارَن الفعلُ المبنيُّ لما لم يُسمَّ فاعلُه (المبنيّ للمجهول) بالفعل المبني للمعلوم، واسم المفعول بالفعل نفسه، وصيغة مشتقة بأخرىٰ.

وفي هذه الآية "غير المغضوب عليهم" يقال بادئ ذي بدء: إنّ استخدام الاسم لا الفعل يحمل دلالة الثبوت والتحقق، فما جاءت الآية: غير الذين غُضب عليهم، وما جاءت كذلك: ولا الذين ضلّوا، وبمجيء (المغضوب عليهم، والضالين) ارتسمت الدلالة الأولىٰ وهي الثبوت؛ ثبوت الغضب عليهم، وثبوت الضلال.

وتتضح الدلالة الثانية دلالة شمول الغضب، غضب الله عزّ وجلّ وغضب من يغضب لله من الملائكة وغيرهم، هذه الدلالة يكشفها إخفاء الفاعل فاعل الغضب، إذ يؤخذ اسم المفعول عادةً من الفعل المبني للمجهول، وزيادةً علىٰ هذا قال ابن القيّم: "حُذف فاعل الغضب لأسباب، منها: أن الغضب انتقام، والعدل والرحمة تغلب الغضب، فحذف فاعله، وأظهَرَ في آية ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [**سورة الفاتحة**:٧]. فاعل الإنعام. ومن الأسباب كذلك الإشعار بإهانة المغضوب عليه وتحقيره، وتصغير شأنه" (**ابن قيم الجوزية**، ٢٠٠٥، ج١/ ٣٥)، وأضاف الزركشيّ إلىٰ ما سبق لطيفةً تضمّنها الخطاب، إذ قال: "زوّىٰ لفظ الغضب عن الله تعالىٰ أدبًا ولطفًا، وهذا غاية ما يصل إليه البيان" (**الزركشي**، ٢٠٠٦، ج٣/ ٣٢٢).

وفي مقابل اسم المفعول (المغضوب عليهم) جاء الكلام عمّن ضلّوا بالاسم لا الفعل، مشتقًّا من الفعل المبني للمعلوم لا المجهول. فبالاسميّة تحقَّق معنىٰ ثبوت

الضلال فيهم، وفي الفعل المبني للمعلوم لم يُحذف الفاعل، فهم -أي النصارىٰ- ضلّوا دون أن يضلّهم أحد.

وتبدو ملامح ظاهرة التأدّب بناءً علىٰ ما سبق، في ترك التصريح بفاعل الغضب، وتركُ التصريح بلفظه تأدّبٌ بحقّه، ويمثّل إعطاءه القيمة المرتفعة في الحاجات والرغبات والمؤهلات، بناءً علىٰ مقياس الكرم واللباقة والاستحسان، أما الحاجات والرغبات فتكون دون تصريح بها، كأنّ لسان حال الغاضب يقول: من الحسْن عدم التصريح بنسبة فعل الغضب أو صفته إليّ. وفي المؤهلات يظهر أنَّ من الأدب واللباقة واللطف أن تُعدّد صفات الخالق كالعدل والرحمة والإنعام، ويثنىٰ عليه بها، وأن تُزوّىٰ ألفاظٌ كالغضب والانتقام.

رابعًا- التأدّب اللغويّ في التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [سورة الفاتحة: ٥].

التقديم والتأخير ظاهرة واسعة في العربية، أرجع سيبويه غايتها إلىٰ تقديم الأهمية، يقول: "كأنّهم إنّما يقدّمون الذي بيانه أهمّ لهم، وهم ببيانه أعنىٰ، وإن كانا جميعًا يُهِمّانهم ويعنيانهم" (**سيبويه**، ١٩٨٨، ج١/٣٤)، وقال الجرجاني في التقديم والتأخير: "بابٌ كثيرُ الفوائد، جمُّ المحاسن، واسعُ التصرّف، بعيدُ الغاية، لا يزال يفترُّ لك عن بديعة، ويُفضي بك إلىٰ لطيفة، ولا تزال ترىٰ شعرًا يروقك مسمعُه، ويلطُف لديك موقعُه، ثم تنظر فتجد سبب أنْ راقك ولطُف عندك؛ أنْ قُدّم فيه شيء، وحُوّل اللفظ عن مكان إلىٰ مكان" (**الجرجاني**، ١٩٨٤، ١٠٦).

وفي الدرس اللسانيّ المعاصر يمكن النظر إلىٰ التقديم والتأخير بعيدًا عن النظام اللغوي التجريدي، لأنه قد يتعذّر معه تفسير نشاطات لغوية استعمالية، تتبع عادة

غرض المتكلّم وتوافق مبتغاه، وتحقق مقاصده، وتدعوه إلىٰ الترخّص في المعايير، فيظهر النشاط اللغوي فيها أنسب للمقام، كما هو في التقديم والتأخير (**بوجراند، ١٩٩٨، ٤**).

هكذا، يجدر بالباحثِ أيِّ باحث، النظر إلىٰ اللغة أداة للتواصل أوّل الأمر، وأداة للتفاعل والتهذيب والتأثير في نهاية الأمر، فقوله تعالىٰ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [**سورة الفاتحة: ٥**]. يُقرّ فيه بالعبودية لله وكذلك الاستعانة به، ثمّ يبدأ بالبحث عمّا يحيط بها من مشيرات مقاميّة وإحالات مرجعيّة ومعطيات سياقيّة لإظهار براعة الآية في التعبير عن العبودية والاستعانة.

ففي السِّياق العامِّ للسورة، وبعد ذكر الحقيق بالحمد ووصفه بصفات عظام، خوطب بـ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، بتقديم الوسيلة علىٰ طلب الحاجة، لأنّ المعبود المعيّن هو الأجدر بالإجابة، فلسان حال المخاطِب: يا مَن هذا شأنه، نخصّك بالعبادة والاستعانة، خطابًا مباشرًا ليكون أدلَّ علىٰ التّرقي من البرهان إلىٰ العيان، ومن الغيبة إلىٰ الشهود، فكأنّ المعلوم صار عيانًا، والمعقول مشاهدًا. وانظر إلىٰ قيمة التكرار في (إيّاك) إشارةً إلىٰ أنّ عبادته سبحانه لا تتهيأ إلا بمعونته، وأنّ ملاك الهداية بيده (**الزمخشري، ٢٠٠٩، ج١/ ١٢**).

ويتبيّن أنّ المقام مقام إخلاص وإقبال من العبد إلىٰ خالقه، فالآية جاءت بعد البدء بالحمد والثناء علىٰ الذات، ثمّ الدلالة علىٰ الخالق بالأفعال، ثم الترقي إلىٰ الصفات، ثم الرجوع إلىٰ الذات، استشعارًا أنه الأول والآخر المحيط بكلّ شيء.

لعلَّ هذا التحليل كافٍ للقول بالتأدب من المخلوق بحقّ الخالق، إذ مثّل التقديم في الآية يقينًا صادقًا أنّ الله سبحانه وحده المستحقُّ للعبادة، وأنه وحده المعينُ علىٰ قضائها، ولذا برع الخطاب في تحقيق التأدُّب أمام عظمة الخالق، فكانت مقاييس

الكرم واللباقة والاستحسان حاملة للتأدب في صيغة إعطاء الخالق القيمة المرتفعة في مؤهلاته وقدراته، مع التأكيد بالضرورة أنَّ الإعطاء هنا لا يمثّل البتة عطاء احتياج الآخر، إنّما هو عطاء الإقرار والاعتراف من المتكلّم لخالقه بما هو أهل له، لتتحقَّق باللغة صفة التأثير في المتلقي.

ويمكن بالتدبّر كذلك، تبيّن مقياسٍ آخر من مقاييس التأدّب، وهو الإجبار، بالاعتماد علىٰ السياق القرآني في السورة بعامّة، فالمدرك أنّ الله ربّ العالمين، الموجد لهم، المنعم عليهم، المالك لأمورهم، ولا محمود غيره؛ يُجبر علىٰ الإقرار والاعتراف والإعلاء من صفات الخالق ومؤهلاته، ويكون ذلك بأسلوب التقديم، بحصر العبادة وقصرها، وكذلك الاستعانة بالله وحده؛ فتكون المحصّلة: أجبَرتْ ذاتُ الخالق وصفاته وأفعاله المتكلّمَ علىٰ الاعتراف والإفصاح بالإخلاص في عبوديته والاستعانة به.

خامسًا- التأدّب اللغوي في الأمر في قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [**سورة الفاتحة: ٦**].

يندرج أسلوب الأمر في العربية بمباحث الإنشاء الطلبيّ، ويراد به عند إطلاقه الطلب علىٰ وجه الاستعلاء، يقول السكّاكي: "والأمر في لغة العرب عبارة عن استعمالها، أعني استعمال نحو (لينزل وانزل ونزالِ) علىٰ سبيل الاستعلاء... ثمّ إنّها حينئذٍ تولّد بحسب قرائن الأحوال ما ناسب المقام، فإن استُعملت علىٰ سبيل التضرّع كقولنا: اللهم اغفر وارحم، ولّدت الدّعاء، وإن استعملت علىٰ سبيل التلطّف كقول أحدٍ لكلّ من يساويه في المرتبة: افعل، ولّدت السؤال والالتماس..." (**السكّاكي**، ١٩٨٣، ٣١٨-٣١٩).

والأمر في الدَّرس اللسانيّ المعاصر يعدّ فعلًا توجيهيًّا سلطويًّا، وهو ما يعارض في ظاهره التأدب في الخطاب والتلطّف فيه، لأنّ الفعل التّوجيهيّ يعدّ ضغطًا علىٰ المرسل إليه، وتوجيهه لفعل مستقبليّ معيّن، والحرص علىٰ التهذيب يكون تاليًا للتبليغ، وهذا نقيض التأدّب" (الشهري، ٢٠٠٤، ص٣٢٢)، وهذا بالطّبع يكون في المخاطبات البشرية والمؤسسات الاجتماعية والرسمية بصورة أوضح، لكنه -أي الأمر- يجد له صدًىٰ في التأدب كما سيتبيّن.

فمن الممكن أحيانًا استثمار المعاني التي يخرج إليها الأمر لحمل التأدب في الخطاب والتلطّف؛ فيُعدل عن الصيغة الخبريّة الدالة علىٰ التهديد مثلًا أو السخرية والاستهزاء إلىٰ الأمر، فيخفي وراءه بالصيغة الإنشائية المعنىٰ المراد من الصيغة الخبرية، ففي قول الأب مثلًا لابنه: (افعل ما شئت) أمرٌ يفيد في سياق معيّن التهديد والوعيد، وهو يعادل في البنية العميقة للكلام الجملة الخبرية: أتهدّدُك وأتوعّدك، لكنّ المنطوق في البنية السطحيّة -وهو الأمر- أقلّ حدة وأكثر تلطفًا، مع قيامه بالمعنىٰ المقصود من المتكلّم؛ وهذا توجّه في الخطاب يتوافق وما ذكره التداوليون من تقنياتٍ مثل: "لا تقل شيئًا، والتلميح بدل من التصريح" (يول، ٢٠١٠، ١٠١).

وفي سياق الآية الكريمة ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ دلالة علىٰ طلب الهداية من الله عز وجلّ، أي: دلّنا علىٰ الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، ووفّقنا لسلوكه، وثبتنا عليه (ابن كثير، ٢٠٠٠، ج١/ ١٣٧)، وفي الآية بيان للمعونة المطلوبة، فكأنه قال: كيف أُعينكم؟ فقالوا: اهدنا. والهداية أعظم وأوّل ما يطلبه المؤمن من ربّه، لأنَّها ضمان السعادة في الدنيا والآخرة (البيضاوي، ٢٠٠٠، ج١/ ٣١).

وقبل بيان التأدّب المتضمَّن في صيغة الأمر من المتكلّم إلىٰ المخاطب، يجدر الوقوف علىٰ التلطّف الربّاني والكرم الإلهي اللذين هما التأدّب بعينه، ذلك بالنظر إلىٰ سياق الآية ومحلّها في السورة، "فأصحاب هذه المناجاة تهيّأ لهم أن يسعوا إلىٰ طلب حظوظهم الشريفة من الهداية بعد أن حمدوا الله ووصفوه بصفات الجلالة، وأتبعوا ذلك بِـ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، الذي هو واسطة بين الثناء والطلب، حتىٰ إذا ظنّوا بربّهم الإقبالَ عليهم، ورجوا من فضله؛ أفضَوْا إلىٰ سؤال حظّهم، فقالوا: اهدنا الصراط المستقيم" (**ابن عاشور، ١٩٨٤، ج١/ ١٨٧**)، فكان طلب الهداية بالتوسّل بعبوديته وصفاته، ليكون الداعي حقيقًا بالإجابة.

ومِن كرم الله كذلك في السياق إضافة كلمة "الصراط" إلىٰ الذين أنعم الله عليهم، ليزول عن طالب الهداية وسلوك الصراط وحشة تفرّده عن أهل زمانه وبني جنسه، ليعلم أنّ رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم الله عليهم، فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه" (**ابن القيم، تفسيره، ١٩٤٨، ٢١**).

وبالنظر إلىٰ الأمر من المتكلّم للمخاطب، ففيه من التأدب كذلك ما يحتاج تأمّلًا، إذ يجيء الأمر ثمرةً لما علِمَه العبد من كيفيّة السؤال وتوقيته، فبعد أن حمد ربه وأثنىٰ عليه وأقرّ بعبوديته والاستعانة به عليها؛ دعا ربّه بالهداية إلىٰ الصراط المستقيم، وتحققت بذلك إستراتيجيّة الإجبار التأدبيّة، إجبار المخاطب للمتكلم بالدعاء والطلب، فلما رأىٰ العبد المناجي يقينًا واعتقادًا ربَّه أهلًا لأسمائه وصفاته وأفعاله، كان حقًّا علىٰ العبد أن يدعوه وأن يطلب الهداية منه وحده.

وليس بعيدًا عما ذُكر اعتبار الطلب في الآية من باب التأدُّب في الكرم واللباقة والاستحسان، في مجال إعطاء المتكلّم الداعي ربَّه المكانة العليا في المؤهلات والإمكانات الحقيق بها، في سورةٍ كريمةٍ قامت علىٰ حمْد الله والثناء عليه وإفراده

سبحانه بالألوهيّة والربوبيّة والصفات والأفعال، فيأتي طَلب الهداية من الله سبحانه حلقة متّصلة مكمّلة للثناء علىٰ الخالق سبحانه؛ فلا هادي سواه، ولا منعم غيره، ولذا كان من كرم المناجي ربّه ولباقته وحسْن فعلِهِ أن يدعو ويطلب من ربه الهداية.

وهكذا وقع الأمر في الآية الكريمة صيغة مكثّفة الدِّلالة جليلة المقاصد، كما الشأن في آيات السّورة كلّها، وفي الظواهر اللغوية فيها، يقول ابن كثير: "وهذا أكمل أحوال السائل؛ أن يمدح مسؤوله، ثمّ يسأل حاجتَه وحاجة إخوانه المؤمنين، بقوله: (اهدنا) لأنّه أنجحُ للحاجة، وأنجعُ للإجابة" (**ابن كثير**، ٢٠٠٠، ٧١). وتتكشّف المقاصد وتتجلىٰ كذلك لدىٰ البحث في الظاهرة والشكل البلاغيّ، ويصبح ممكنًا مقارنة الكلمة أو الجملة بكلمة أخرىٰ أو جملة مغايرة يمكن أن تستخدم مكانها (**فضل**، ١٩٧١، ١٢٧).

والقصد من هذا أنّ ما ورد في سورة الفاتحة من ظواهر لغويّة أو كلمات أو أساليب، يمكن أن تقارن بمقابلاتها؛ فيقارن الحذف في (بسم الله) بالذِّكر، وتقارن الجملة الاسمية (الحمد لله) بالجملة الفعلية، وتقارن الأوصاف الأسماء (مالك والرحمن والرحيم) بأفعالها مثلًا، ومنه مقارنة التقديم في (إياك نعبد) بالتأخير، وكذلك مقارنة الإنشاء الطلبي (اهدنا) بالإخبار؛ وفي كلٍّ تَحدَّدَ الشكل البلاغي وأخذَ خاصيته، وأمكن القول بوجود التأدّب في الخطابات كلّها.

قائمة المصادر والمراجع

١. **ابن الأثير**، ض. (١٩٨٢). المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة. ط١، الرياض: دار الرفاعي.

٢. **البقاعي**، ب. (١٩٨٤). نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. القاهرة: دار الكتاب الإسلامي.

٣. **بلانشيه**، ف. (٢٠٠٧). التداوليّة من أوستن إلىٰ غوفمان. ترجمة: صابر الحباشة. ط١، اللاذقيّة: دار الحوار.

٤. **بوجراند**، د. (١٩٩٨). النص والخطاب والإجراء. ترجمة: تمام حسّان. ط١، القاهرة: عالم الكتب.

٥. **البيضاوي**، ن. (٢٠٠٠). أنوار التنزيل وأسرار التأويل. تحقيق: محمد صبحي حلاق ومحمود الأطرش. ط١، بيروت: دار الرشيد، ومؤسسة الإيمان.

٦. **الجرجاني**، ع. (١٩٨٤). دلائل الإعجاز. تحقيق: محمود محمد شاكر. ط١، القاهرة: مكتبة الخانجي.

٧. **أبو حيان الأندلسي**، م. (١٩٩٣). البحر المحيط. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرين. ط١، بيروت: دار الكتب العلميّة.

٨. **خطّابي**، م. (١٩٩١). لسانيات النّص: مدخل إلىٰ انسجام الخطاب. ط١، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

٩. **الخطيب القزويني**، م. (١٩٥٣). الإيضاح في علوم البلاغة. تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، ط٢، مصر: دار إحياء الكتب العربيّة.

١٠. **الزركشيّ**، م. (٢٠٠٦). البرهان في علوم القرآن. تحقيق: أبي الفضل الدمياطي، القاهرة: دار الحديث.

١١. **عبد الرحمن**، ط. (١٩٩٨). اللسان والميزان أو التكوثر العقلي. ط١، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

١٢. **الزمخشري**، م. (٢٠٠٩). الكشّاف. ط٣، بيروت: دار المعرفة.

١٣. **السّعدي**، ع. (٢٠٠٢). تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (تفسير السعدي). تحقيق: عبد الرحمن بن معلّا اللويحق. ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة.

١٤. **أبو السعود**، م. (١٩٩٩). إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود). تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، ط١، الرياض: مكتبة الرياض الحديثة.

١٥. **السكّاكي**، ي. (١٩٨٣). مفتاح العلوم. تحقيق: نعيم زرزور. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية.

١٦. **سيبويه**، ع. (١٩٨٨). الكتاب. تحقيق: عبد السلام هارون. ط٣، القاهرة: مكتبة الخانجي.

١٧. **الشهري**، ع. (٢٠٠٤). إستراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداوليّة. ط١، بنغازي: دار الكتاب الجديدة.

١٨. **ابن عاشور**، م. (١٩٨٤). التحرير والتنوير. تونس: الدار التونسية.

١٩. **عباس**، ف. (٢٠٠٧). البلاغة فنونها وأفنانها. ط١١، عمّان: دار الفرقان.

٢٠. **عبيد**، ح. (٢٠١٤). نظريّة التأدّب في اللسانيات التداوليّة. مجلّة عالم الفكر. مج (٤٣). ع (١). ص ص (١١٣-١٥٠).

٢١. **أبو هلال العسكري**، ح. (١٩٥٢). الصناعتين. تحقيق: علي محمّد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم. ط١، القاهرة: دار إحياء الكتب العربيّة.

٢٢. **العلويّ**، ي. (١٩١٤). الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. ط١، القاهرة: دار الكتب الخديوية.

٢٣. **فضل**، ص. (١٩٧١). بلاغة الخطاب وعلم النّص. الكويت: عالم المعرفة.

٢٤. **القرطبي**، م. (١٩٦٤). الجامع لأحكام القرآن. تحقيق: عبد الله التركي. ط٢، بيروت: مؤسسة الرسالة.

٢٥. **قطب**، س. (١٩٧٢). في ظلال القرآن. ط١، القاهرة: دار الشروق، القاهرة.

٢٦. **ابن قيم الجوزية**، م. (١٩٤٨). التفسير القيم. تحقيق: محمد حامد الفقي. بيروت: دار الكتب العلمية.

٢٧. **ابن قيم الجوزية**، م. (١٩٨٨). الفوائد المشوّق إلىٰ علوم القرآن وعلم البيان. ط٢، بيروت: دار الكتب العلمية.

٢٨. **ابن قيم الجوزية**، م. (٢٠٠٥). مدارج السالكين. تحقيق: عماد عامر. ط١، القاهرة: دار الحديث، القاهرة.

٢٩. **ابن كثير**، إ. (٢٠٠٠). تفسير القرآن العظيم. بيروت: دار ابن حزم.

٣٠. **الماوردي**، ع. (٢٠١٩). النكت والعيون (تفسير الماوردي). تحقيق: السيد بن عبد المقصود. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية.

٣١. **ابن هشام الأنصاري**، ع. (١٩٦٤). مغني اللبيب. تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله. ط١، دمشق: دار الفكر العربي.

٣٢. **يول**، ج. (٢٠١٠). التداولية. ترجمة: قصي العتابي. ط١، الرّباط: الدار العربية للعلوم، ودار الأمان.

المراجع الإنجليزيّة:

THE PRAGMATICS OF POLITENESS. OXFORD UNIVERSITY. LEECH.G (2014).